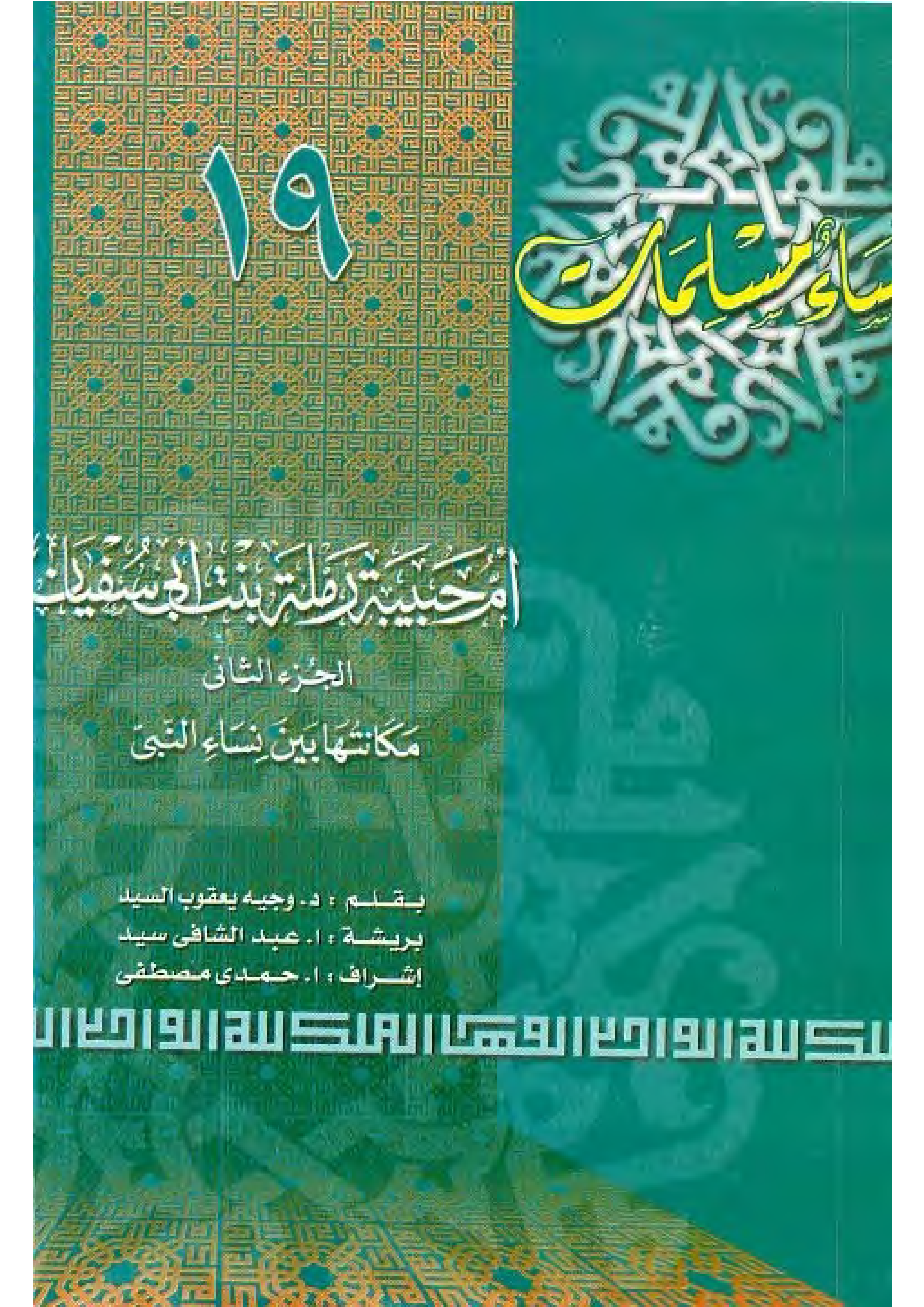

نساء مسلمات
١٩
أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان
الجزء الثاني
مكانتها بين نساء النبي
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

آنَ الأوانُ لكى تهاجر رملةُ بنتُ أبى سفيانَ والمسلمونَ إلى المدينةِ المنورةِ ، حيثُ كانَ المسلمونَ هُناكَ يحتفلونَ بنصرِهم المؤزرِ على اليهودِ فى غزوةِ خيبر ، وودَّعَ النجاشىُّ المسلمينَ الذين عاشوا فى كنفه وتحت رعايته ، ينعمونَ بالأمنِ والاطمئنان ، وأوصاهم أن يقرئوا الرسولَ ﷺ السلامَ .

واستقبلت المدينةُ المنورةُ خبر رملة والمهاجرينَ من الحبشةِ بالبشرِ والترحابِ ، وكانَ جعفرُ بن أبى طالب أميرا على هؤلاءِ المهاجرين ، وما إنْ رآه الرسولُ ﷺ حتى قامَ إليه بنفسه واحتضنه ثم قبَّل ما بين عينيه وقالَ فى سعادة :

ـ واللّه ما أدرى بأيهما أفرحُ ؟ أبفتح خيبر ؟ أم بقدومِ جعفرٍ ومن معه من المسلمين .

وضمَّ الرسولُ ﷺ رملةَ بنتَ أبى سفيانَ إلى نسائه ، وأخذت تتبوأُ مكانها فى حياة النبى ﷺ يوما بعد يومٍ ، فهى امرأةٌ جاهدت فى سبيلِ اللّه ، وصبرت على الابتلاءِ ، فكافأها اللّهُ (تعالى) بالزواجِ من رسولِ اللّه ﷺ .

كانتْ رملةُ بنتُ أبى سُفيانَ سعيدةً بزواجِها من الرسول ﷺ ، واعتبرتْ هى وأهلُها هذا الزَّواجَ تشريفًا لها ولقومِها ، ورفعًا لأقدارِهم ، غيرَ أنَّ أهمَّ ما كانَ يؤرِّقُها هو كُفْرُ أبيها الذى ربَّاها وأنفقَ عليها ، وتصدِّيه لزوجِها ﷺ بكلِّ ما أُوتىَ من قُوَّةٍ .



وتمنّت رملةُ أنْ تحدُثَ المعجزةُ ، ويُسْلِمَ أبُوها ، وينضمَّ إلى كتيبةِ الإيمانِ .. وهلْ ذلكَ على اللَّهِ ببعيدٍ ؟ ألمْ يسْلِمْ منْ قبْلُ عمرُ بنُ الخطاب وكانَ منْ أشدِّ الناسِ عداءً للرسول ﷺ ؟ فلِمَ لا يفتحُ أبوها قلْبهُ ، ويُصْغى لصوتِ الحقِّ ؟

ولعلَّ رملَةَ بنْتَ أبى سُفْيانَ كانتْ ترجُو أنْ تكونَ فى مكانَةِ عائشَةَ بنتِ أبى بكْرٍ وحفصَةَ بنْتَ عُمرَ بنِ الخطاب ، بعْدَ أنْ صارتْ زوجةً للنبىِّ ﷺ وأُمًّا للْمؤمنينَ ، ولكنْ أنَّى لها ذلك ؟ وأبو بكْرٍ وعُمرُ قدْ بشَّرهما رسولُ اللَّهِ ﷺ بالْجنَّةِ ، أمَّا أبوها فهو مايَزالُ على عنادهِ وكُفْرِهِ !

ومضَتِ الأيَّامُ مُسرعَةً ، ورمْلةُ تعيشُ فى بيْتِ النُّبوةِ تنعمُ برؤْيةِ النبىِّ ﷺ وتحْظَى بقُرْبهِ ، وكانتْ تدرِكُ بحسِّها ووعْيها أنَّ الْمواجهةَ بينَ الْحقِّ والْباطلِ آتيةٌ لا ريْبَ فيها ، وأنَّ زوْجها ﷺ سيخوضُ حرْبًا لا هوادةَ فيها ضدَّ أبيها والْمشركينَ معهُ منْ أهْلِ مكَّةَ .

وأكَّدَتِ الأيامُ صِدْقَ حدْسِ رمْلَةَ (رضىَ اللَّه عنها) ، فقدْ



أَمَرَ الرسولُ ﷺ أصْحابَهُ بالاسْتعْداد لفَتْحِ مكَّةَ ، بعْد أنْ نقَضَ الْمشرِكونَ الْعهْدَ الذى وقَّعوهُ معهُ فى الْحُدَيْبية .

وعلمَ الْمشرِكونَ أنَّ مُحمداً ﷺ سيَغْزُوهُم فى جيشٍ كبيرٍ لا قِبَلَ لهم به ، فاتَّفَقُوا على أنْ يُرْسلوا أحدَهمْ إليه لكىْ يفَاوِضَهُ ويطْلبَ منهُ الصَّفْحَ والْعفْوَ عنهمْ ، واسْتقَرَّ رأْيُهم على أبى سُفيانَ وقالُوا له :

- أَنْتَ سيدُ أَهلِ قُرَيشٍ ، وابنتكَ عندَ محمدٍ ، وإنا لنراكَ أَجْدَرَنا بمناقشةِ محمدٍ والتَّفاوضِ معَهُ من أَجْلِ تمديدِ الصُّلْحِ .

ووافقَ أَبو سُفيانَ على الذَّهابِ إلى محمدٍ ﷺ على مَضَضٍ ، فقدْ كانَ لا يتصوَّرُ نفسَه وهو يتحدثُ معهُ ويخاطبُه بعْدَ هذا الصِّراعِ الطويلِ والْحروبِ الضَّروسِ ، التي أَجَّجَ أَبو سُفيانَ نيرانَها .

وتسلَّلَ أَبو سفيانَ إلى الْمدينةِ خفْيةً حتى لا يراهُ أَحدٌ ، وقالَ لنفْسه :

- لم لا أَذْهبُ إلى ابْنَتي رمْلَةَ فقدْ تشْفَعُ لي عنْدَ زوجِها وتُسَهِّلُ عليَّ الأَمْرَ .

وذهبَ أَبو سُفيانَ إلى بيْتِ ابْنته رمْلَةَ ، فحيَّاها واطْمأَنَّ على أَحْوالِها وقالَ لها بعْدَ ذلكَ :

- لقدْ جئتُ إليكِ لكَيْ تشْفعي لي عنْدَ زوْجِكِ يا ابْنَتي ، فقدْ علمنا أَنهُ ينْوي غزْوَ مكَّةَ وأَهلِها ، حيْثُ أَهْلُكِ وعَشيرتُكِ !

فسكتَتْ رملةُ ولَمْ تُجِبْه ، فهي تعْرِفُ أَنَّ الرسولَ ﷺ ،

مادامَ عزمَ على شيءٍ فهوَ سيمضِي إليهِ بإذْنِ اللهِ ، لأنهُ
لا يتحركُ عنْ أمْرِه ، ولكنهُ يسيرُ تبعًا لإرادةِ السَّماءِ .
وهمَّ أبُو سفيانَ أنْ يجلسَ حتى يعودَ رسولُ اللهِ ﷺ
فيكلِّمهُ بنفْسِهِ ، ونظرَ في أرْضِ الْحُجْرةِ ، فوجدَ فراشًا ،



فأرادَ أَنْ يجْلسَ عليـه ، لكنَّ ابنتَـهُ أسرعَتْ وطوتِ الْفِراشَ قبْلَ أنْ يصل إليه .

وتعجَّبَ أبو سُفيانَ منْ صنيعِ ابْنته ، وسألها في دهْشةٍ :

ـ يا ابْنتي لِمَ طويْتِ الْفِـراشَ عني ؟ هلْ رغِـبْتِ بهـذا الْفراشِ عنّي ، أوْ أنَّ هذا الْفِراشَ لا يليقُ بأبيك ؟

فقالتْ رمْلَةُ :

ـ وربِّ محـمـدٍ ، مـا رفعْتُ هذا الْفِـراشَ ، إلا لأنكَ رجلٌ مُـشْـرِكٌ باللَّهِ ، فكيْفَ آمنُكَ على فِـراشٍ جلسَ عليـهِ رسول اللَّه ﷺ ؟

وأحسَّ أبو سفيانَ بالْحزْنِ يعتصرُ قلْبه فقالَ لابْنته :

ـ يا بُنيَّةُ ، لقدْ أصابكِ بعْدي شرٌّ .

فقالتْ في ثقة :

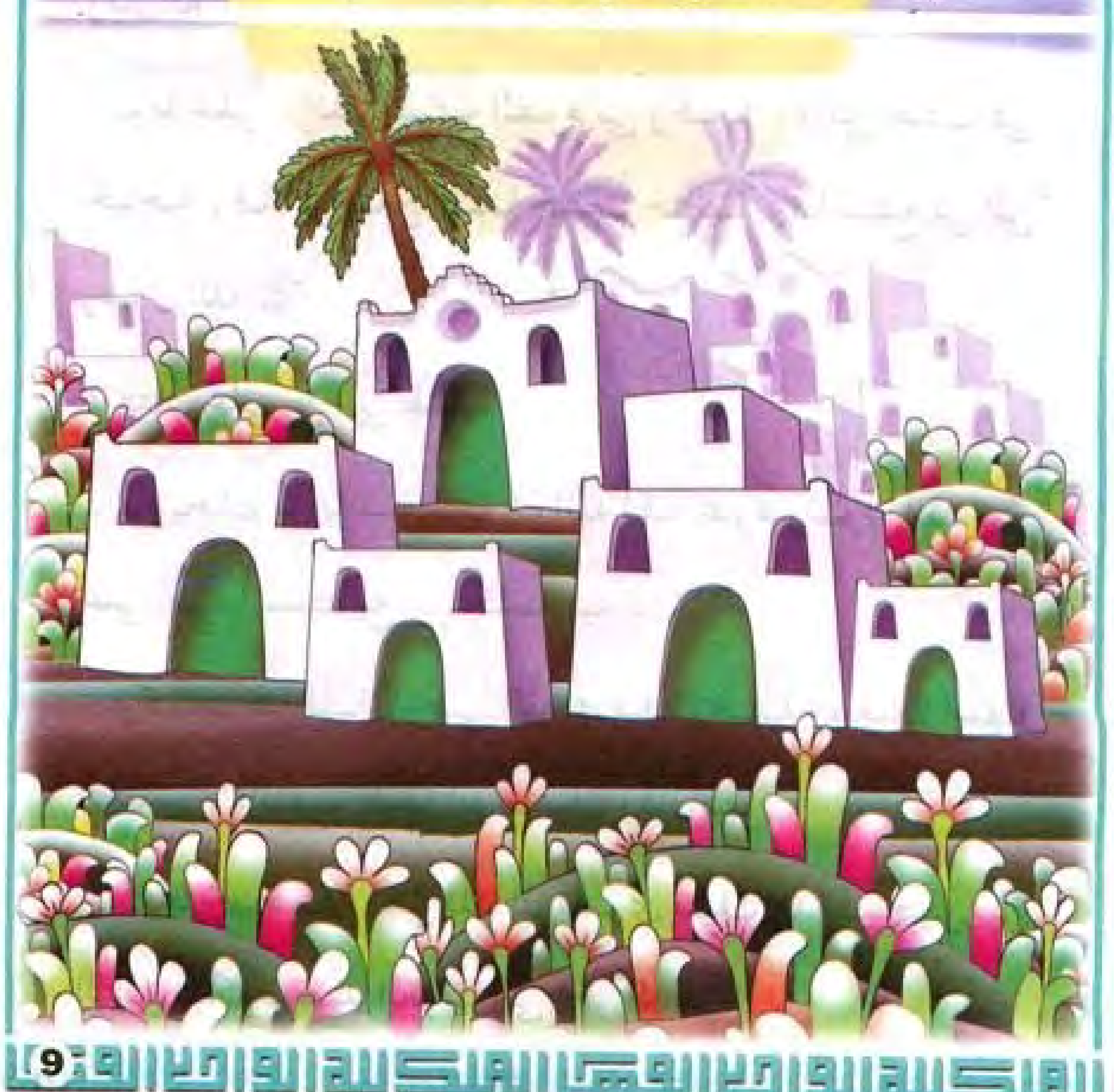
ـ بل أنْتَ الذي أَصابكَ الشَّرُّ كُلُّهُ بكفْرِكَ باللَّهِ !

وخرجَ أبو سُفْيانَ منْ عنْدِها حزينًا حتى أتى النبيَّ ﷺ فطلبَ منْهُ أنْ يزيدَ مدَّةَ الْهُدْنة ، فلمْ يردَّ عليه الرسولُ ﷺ بما يُريحُهُ .

فذهبَ أبو سُفيانَ إلى أبى بكرٍ الصِّديقِ فتوسَّلَ به لكىْ يكلِّمَ رسولَ اللهِ ﷺ ، لكنَّ أبا بكرٍ رفضَ ذلكَ وقالَ :

ـ ما أنا بفاعلٍ .

ولمَّا يئسَ أبو سُفْيانَ من أبى بكْر ذهبَ إلى عُمرَ بنِ الْخطابِ فكلَّمهُ ، لكنَّ عُمرَ قالَ له :



ـ أنا أَشْفعُ لكمْ إلى رسولِ اللَّه ﷺ ؟ فواللَّهِ لوْ لَمْ أَجدْ إلا الذرَ لجاهَدْتكُمْ به .

(أىْ لوْ لمْ أجدْ إلاَ الْحصى أو التُراب لجاهدْتكمْ به) .

وانْطلقَ أَبو سُفيانَ إلى علىٍ بنِ أبى طالبٍ ، فدخلَ عليه وقالَ لهُ :

ـ يا علىُّ ، إنكَ أقْربُ الْقومِ بى رحمًا ، وإنى جئتُ فى حاجةٍ ، فلا أرجعنَ كما جئتُ خائبًا ، فاشْفعْ لى إلى رسولِ اللَّه ﷺ .

فقالَ علىُّ بنُ أبى طالبٍ :

ـ ويْحكَ يا أبا سُفيانَ ! واللَّه لقدْ عزمَ رسولُ اللَّه ﷺ على أمرٍ ما نستطيعُ أنْ نكلِّمه فيه .

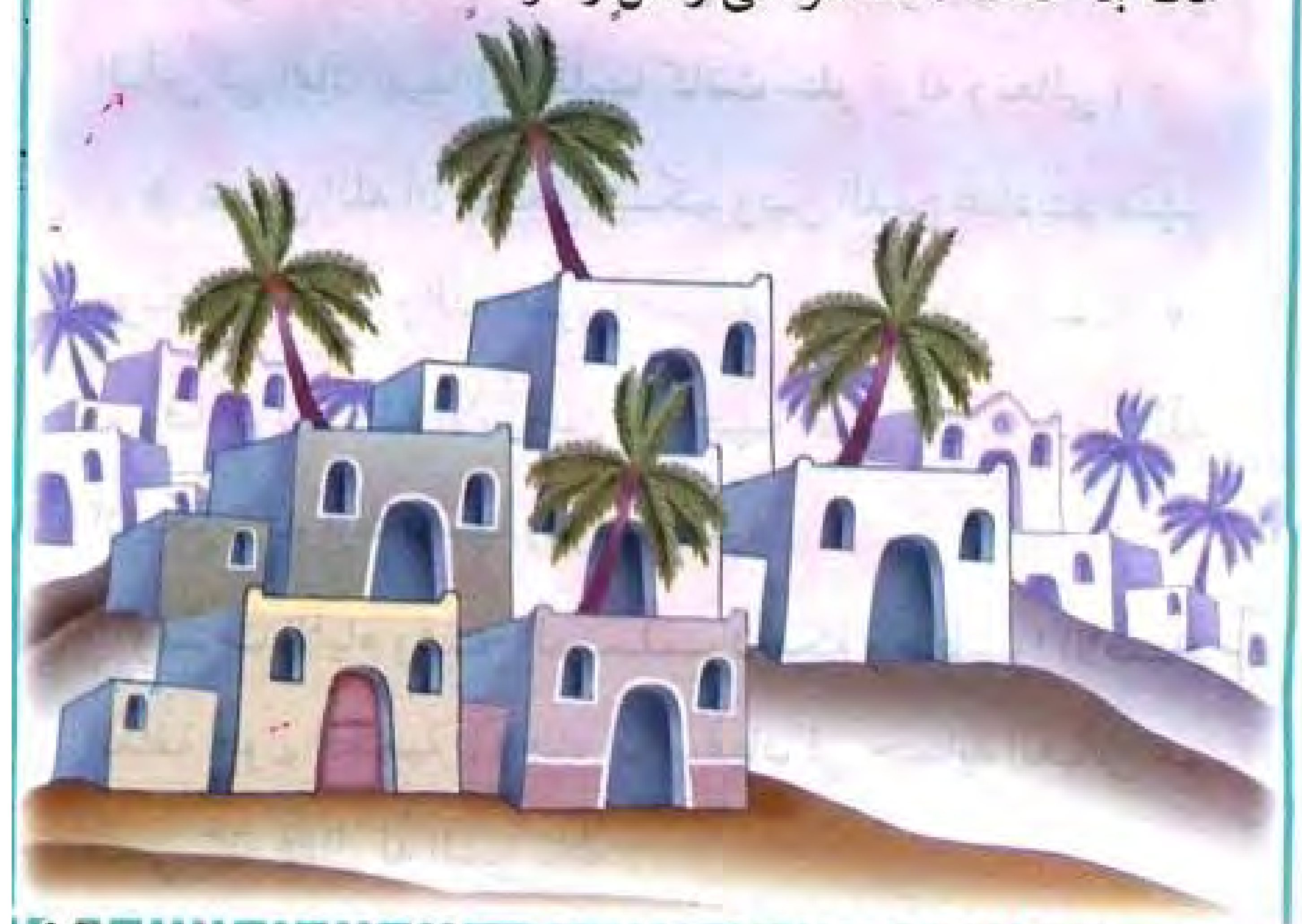
وكانتْ فاطمةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) واقفةً ومعَها ابْنُها الْحسنُ ، فالْتفتَ إليها أبو سُفيانَ وقالَ لها :

ـ يابْنَةَ محمدٍ ، هلْ لكِ أنْ تأْمُرى بُنيَّكِ هذا فيُجيرَ بيْنَ الناسِ فيكونَ سيدَ الْعربِ إلى آخرِ الدهْرِ ؟

فقالتْ فاطمةُ :

ـ واللّهِ ، ما بلَغَ بنيَّ هذا أنْ يُجيرَ بيْنَ النَّاسِ ، وما يُجيرُ أحَدٌ على رسول اللّه ﷺ .

ولما رأى أبُو سُفيانَ أنَّ الأمْرَ جدّ لا هزْلَ فيه ، طلبَ منْ علىِّ بنِ أبى طالبِ النَّصيحَةَ ، فأشارَ عليه بالْعَودَةِ من حيثُ جَاءَ ، وأنْ ينتظِرَ ما سوْفَ تسْفرُ عنهُ الأيامُ المقْبِلَةُ ، فعادَ أبُو سُفيانَ إلى مكّةَ بعْدَ أنْ فشِلَ فى مُحاولَتِه ، وأخْبرَ أهْلَ مكةَ بما حدثَ ، فعاشوا فى وجَلٍ وخوْف .



وعـادَ الرســولُ ﷺ إلى بيْتِ زوجَتـِه رمْلَةَ بنْت أَبى سُفيانَ ، فأعْلمها بأمْرِ أَبيها وما جاءَ من أَجْلِه ، فدعَتْ للرَّسول ﷺ وللْمسلمينَ بالْفتْحِ ، ثم قصَّتْ على رسول اللَّه ﷺ ما صنعتْهُ مع أبيها حينَ أرادَ أنْ يجلسَ على فراشه ، فابْتسم الرسولُ ﷺ ، ورضِىَ بما صنعتْه ، وزادتْ مكانَتُها فى قَلْب الرسولِ ﷺ وفى قلْبِ كلِّ مؤْمنٍ ومؤْمنةٍ .

وبقيت أُمُّ حبيبةَ رملةُ بنتُ أَبى سُفيانَ تدعو اللَّهَ أنْ يهْدى أَباها إلى الإسْلامِ ، وما ذلكَ على اللَّه بعزيزٍ ، وكلَّما تسلَّلَ اليأْسُ فى إيمانِ أَبيها إلى قلْبِها كانت تتْلُو قولَه (تعالَى) :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ٧]

وقدْ نزلَتْ هذه الآيةُ حينَ تزوَّجهـا النَّبىُّ ﷺ ، ولعلَّ اللَّه أنْ يكونَ قدْ أَرادَ بأَبيها وقوْمها خيرًا .

ومرَّتِ الأَيامُ وفتحَ الْمسلمونَ مكةَ وحطَّموا الأَصْنامَ الْملْتفَّةَ حولَ الْكعبةِ ، وجاءَ أَبو سُفْيانَ فى حمايةِ الْعباسِ عمِّ النبىِّ ﷺ فقالَ لهُ النبىُّ ﷺ :

ـ ويْحَكَ يا أَبا سُفيانَ ، أَلَمْ يأْنِ لكَ أَنْ تعلمَ أنه لا إلهَ إلا اللَّهُ ؟

فقالَ أَبو سُفيانَ :

ـ بأَبى أَنتَ وأُمِّى ، ما أَحْلمَكَ وأَكْرمَكَ وأَوْصلَكَ ! واللَّهِ لقدْ علمتُ أَنْ لوْ كانَ مع اللَّهِ إلهٌ غَيْرهُ إذنْ لأَغْنى عنِّى شيئاً ، ولكنْ لا إله إلا اللَّهُ !



فقالَ له النبيُّ ﷺ :

ـ ويْحكَ يا أَبا سُفيانَ ، أَلَمْ يأنِ لكَ أنْ تعلَمَ أنِّي رسولُ اللَّهِ ؟

لكنَّ أَبا سفيانَ تردَّدَ في الإيمانِ برسالَةِ مُحمدٍ ﷺ في أَوَّلِ الأَمْرِ ثم مالبثَ أنْ شرحَ اللَّهُ صدْرَهُ للإِسْلامِ ، وأَرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يتألَّفَ قلْبَه فقالَ :

ـ منْ دخلَ دارَ أَبي سُفيانَ فهوَ آمنٌ !

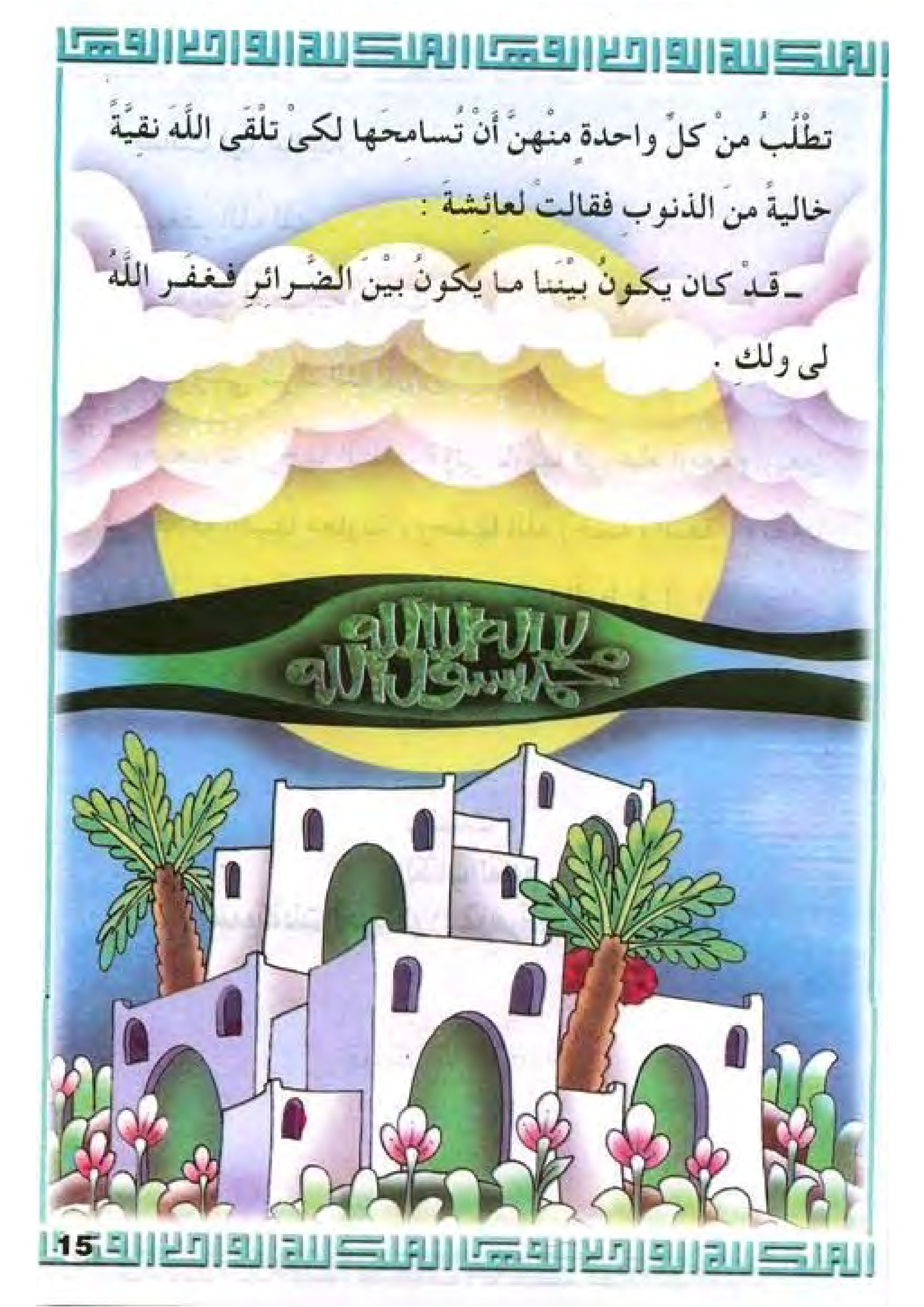
وعنْدئذٍ لمْ يعدْ في حياةِ أُمِّ حبيبةَ رمْلةَ بنتِ أبي سُفيانَ ما يعكِّرُ صفْوها ، فقدْ آمنَ أَبوها وقومُها ، وضربَ زوجُها ﷺ أَروعَ مثلٍ في السَّماحةِ والرحْمةِ ، بعدَ أنْ عفا عنْ أَهْلِ مكةَ ، وجعلَ لأَبيها مكانةً كبيرةً إكرامًا لها .

وعاشتْ رمْلةُ (رضي اللَّهُ عنها) بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ وراحتْ تروي عنْهُ ما سمعتْهُ من أَحاديثَ ، وروى عنْها كثيرٌ من الصحابةِ .

وحينَ حضرتْها الوفاةُ دعتْ إليها نساءَ النبيِّ وراحتْ

تطْلُبُ منْ كلِّ واحدةٍ منْهنَّ أَنْ تُسامِحَها لكيْ تلْقَى اللَّهَ نقيَّةً خاليةً منَ الذنوبِ فقالتْ لعائشةَ :

ـ قدْ كان يكونُ بيْنَنا ما يكونُ بيْنَ الضَّرائِرِ فغفَرَ اللَّهُ لي ولكِ .



فقالتْ لها عائشةُ :

ـ يغفرُ اللَّهُ لكِ .

فسعِدَتْ أمُّ حبيبةَ وقالتْ :

ـ سرَرْتِنى سرَّكِ اللَّهُ !

وصعدَتْ روحُها الطاهرةُ إلى بارئِها فى عامِ أرْبعَةٍ وأرْبعينَ فى خلافَةِ أخيها مُعاوِيةَ ، رحِمها اللَّهُ رحْمةً واسعةً ، ونفعَنا ونفَعَ أمَّهاتِنا وبناتِنا ونِساءَنا بسيرَتِها العَطِرَةِ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

ميمونة بنت الحارث الهلالية (امرأة أحبت الله ورسوله)

رقم الإيداع : ٧٣٢٦/٢٠٠٢
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٧٦١ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧